قصة مصرية

الشيخ عبد الرحيم

بقلم الأستاذ محمد السيد

عرفته يطلب العلم بالأزهر على نظامه القديم عام ١٩١٦ — وكان فتى أصفر اللون قصيراً ، ضعيف العينين حلو الشمائل ، طيب العشرة . ودامت عشرتنا أياما ثم امتدت إلى شهور ، ثم استطالت إلى سنين . حتى آضت صداقة بقدر ما تسع الكلمة من معنى وما تشمل من حدود . خلطنى بنفسه وخلطته بنفسى ، وكنا أعزبين فامتد أمامنا أفق الحياة . وازداد سلطان السعادة . فليس ثمة ولد أو أهل أو ما يعوق هذه السبيل . أو يشوب هذا الرحيق الصافى . بل الكأس المترعة . من الحب . ومن الولاء والاخلاص .

كانت الاحكام العرفية مبسوطة على البلاد ، والسلطة العسكرية قابضة على ناصية الحال تماماً ، والعيون مبثوثة فى كل مكان . والأرصاد واقفة بالمرصاد . فأنفاس الناس عليهم محسوبة . وحركاتهم وسكناتهم محصورة ومعدودة . . والهدوء شامل والحياة راكدة .

لم تكن هذه الحال بالتى أطمئن اليها أو تروقنى ، فأنا ما أزال فى وقدة الشباب . وضحوة العمر . أتعجل الأيام بما تضمره . واستبطىء الاحداث ما فى ضمير الغيب . . وليس من طبعى الاستكانة ولا أطيق الخضوع . . . ولكن الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية قد خلقت فى البلاد جواً من الرهبة قاتم الاديم حالكه .

بدا لى أن أنبه مواطنى ، فوضعت قصة لتنشر فيما بعد ، وقد كان التفكير فى موضوعها حينذاك يعتبر جريمة ، فبقيت لذلك سراً مكتوماً فى نفسى وفى المسودات زمناً ما ، فلما استوثقت من صاحبى طلبت اليه مراجعة القصة وتصحيحها ، وسلمته (المسودات) وكان هذا العمل من جانبى بمثابة تسليم عنق له أو وضع نفسى فى قفص مفتاحه بيده .

على أن هذا الفتى الكريم النفس أبت عليه مروءته ، إلا أن يبادلنى (يداً بيد) فوضع نفسه منى فى موضع أدق .

وما أن أذنت شمس الحرب بالمغيب ودق ناقوس السلام ، وأعلنت هدنة الحرب ، حتى راحت مصر كلها شعلة مشبوبة تعمها الثورة من أقصاها إلى أقصاها .

وساهمت مع المواطنين كافة فى تلبية نداء الوطن وإجابة داعيه . . . ولكن ذاك الفتى الأزهرى لم يقنع بنصيب الكافة ولا بقسمة الجميع . . . بل كان دائماً فى الطليعة والمقدمة . ألقى نفسه فى الاتون المستعر ، واندس وسط اللهب يوقظها بل يشعلها ، غير عابئ بما هو ملاقيه من نهاية معروفه أو موت محقق . . .

وأنت إذا طالعتك مظاهرة ، أو أبصرت جمعاً من المواطنين يؤدون خدمة للوطن ، راعك أنك دائما واجد هذا البطل مع العاملين بل وفى مقدمتهم . . . فان لم تعرفه أعواد المنابر خطيباً ، وإن لم تعرفه الجماعات متكلما ، فقد عرفته تلك الخطوب وهاتيك الاحداث مجاهداً ومجاهداً بالروح ، وبالحياة ، وبالجسد فى سبيل مصر الكريمة ، ومن أجل مصر العزيزة .

وها قد أضرب الموظفون . . . . ثم مضت أيام وأسابيع على هذا الاضراب ، وأخذت الافكار تتجه نحو إنهاء أمد الاضراب والعود إلى العمل . . وكنا نذهب كل مساء إلى الأزهر (معقل الثورة وحصنها) نسمع الخطباء ونستقى الاخبار .

وفى ذات مساء ـ وكان خطيب الليلة طيب الذكر المرحوم (أبو شادى بك) ـ فأشار الخطيب إلى موقف الموظفين المشرف ، ثم استطرد إلى وجوب الاستمرار فى الاضراب ، مشيراً إلى أن هذا عمل طيب له جزاءه الأوفى عند الله والوطن ليس غير ، ثم طمأن الموظفين قائلا : إن السلطة غير قادرة على استبدالهم بآخرين من الشام أو فلسطين مثلا — وفى هذه الاثناء انبرى للخطيب جار لنا (مزارع) يناقشه فيما هى الفائدة من الاستمرار فى الاضراب ، وكانت للرجل حجته ومنطقه ، ولكن الثورة لا عقل لها ولا ضمير ، فما هى إلا لحظة حتى صاح صوت من الحضور — جاسوس ! جاسوس — إضرب يا ولد (مشيرا إلى جارنا المزارع) فتطاولت أيدى الجميع إلى الرجل ، وسرعان ما استعمل (السلاح الاحمر) وكاد الرجل يموت بلا اثم ولا جريرة ، فما والله أن رأيت كأن الارض قد انشقت وبانت عن الشيخ عبد الرحيم قد اندفع إلى الامام صائحا ، ارجع — (ياجدع) ثم ارتمى بكله فوق الرجل يحميه ضربات (الأحذية) والعصى .

كان سواد المصريين لا يريد أن يسلم بنتيجة الحرب التى يرويها الحلفاء . فمن ذا الذى يستطيع أن يصدق أن هذه الأمة التى اكتسحت جحافلها ـ فى مدى ساعات ـ أمنع الحصون وأهم القلاع ، قد غلبت على أمرها وأصبحت مهيضة الجانب مكسورة الجناح ؟

نعم . من ذا الذى يصدق أن هذه الامة التى صمدت أمام العالم أجمع تنازله وتتفوق عليه مدى خمسين شهراً ، تغلب على أمرها حين كان يظن أو يعتقد أنها من النجاح قاب قوسين ؟ حقاً لقد كان من أعقد الأمور وأبعدها عن الفهم أن تسمح بهزيمة ألمانيا .

تحت تأثير هذا الفهم الخاطىء كنا نجتهد أن يُسمع صوتنا فى الخارج ، فتمد لنا الأمم الغالبة يد المساعدة والعون .

كانت تركيا صديقة ألمانيا وحليفتها فى الحرب ، وكان اسماعيل صفوت بك (قومندان استامبول الحربى) ضابطاً تركياً ، كانت السلطة العسكرية قد اعتقلته بمصر فى بداية الحرب وبقى معتقلا حوالى السنتين ، ثم أطلق سراحه ووضع تحت المراقبة . . . وللشيخ عبد الرحيم معرفة بهذا الضابط ، فلما أذن له بالسفر إلى بلاده ، طلب الينا أن نوافيه بما يؤيد وجود ثورة فى مصر ، ثم ماذا هى طلبات المصريين ، وما بواعث ثورتهم ، وما أسانيد حقوقهم من تاريخية وسياسية ، وما إلى ذلك ، فجمعنا له كثيراً مما أصدرت الهيئات المصرية والافراد من كراسات وبيانات ونداآت . وكان الحزب الوطنى قد أصدر كراسة يؤيد فيها حقوق مصر من وجهة نظره ، واتصل خبرها بصفوت بك ، وطلب أن تضاف الى مامعه من مستندات ؛ وبحثنا عنها فلم نوفق الى نسختها ، وأصر الرجل ، وأضاف الى ذلك أنه يعتبرها وثيقة هامة لما للحزب الوطنى من سمعة وحسن بلاء فى قضية مصر .

وكان المرحوم على بك فهمى أخو المرحوم فقيد الوطن مصطفى كامل يقطن ضاحية فى خط الزيتون ، وكانت المواصلات التى تربط المدينة بالضواحى معطلة فى هذه الفترة . . .

ولكن الشيخ عبد الرحيم قطع المسافة بين (المغربلين) ومنزل على بك مشياً على قدميه وكم كان منتبطاً حينما عاد فى المساء يحمل كراسة الحزب .

أما الحصول على تلك المستندات فى ذلك الوقت العصيب ، فكان أمراً فى غاية السهولة إذا قيس بما لاقيناه من عنت الخوف على فقدها ، أو بالحرى على وقوعها فى يد السلطة ، غير أن الحاجة تفتق الحيلة .

فقد عمد هذا (المجاور) الى طريق سهلة سرب بها تلك المستندات — ذلك بأن وضعها بين حوائط حقائب السفر الخشبية التى أعيد طلاؤها بالورق المنقوش مرة أخرى .

وما انبلج فجر سنة ١٩٢٠ ، وكاد نهارها يطلع ، حتى كان الشيخ عبدالرحيم قد بلغ سن

الرشد (القانونية) وباع ما خلفه له أبوه من (طين) وكانت بضع فدادين باقليم الدقهلية ووضع الثمن حساباً جارياً (بالبنك).

وأعقب ذلك أن غير الشيخ عبد الرحيم زيه، أو بعبارة أخرى قد انقلب (أفندياً) من الطراز الأخير، ثم استكمل قيافته الجديدة، بأن اشترى (عوينات) ذات سلسلة ذهبية مدلاة ومثبتة فى طرف (الجاكتة).

ساورنى القلق وأخذتنى الشكوك، وأصبحت أخوف ما أكون أن تضيع دراهم هذا الصديق فيما لا يجب أن تضيع فيه... نعم خفت أن تزل قدمه فتزلق الى ما يزلق فيه أمثاله من الشباب، حين تضع الصدفة فى أيديهم مالا بعد إذ كان لا مال لديهم ولا نشب.

ولكن هذا الشك لم يدم طويلا، ففى أحد الأمسية التى كنا نسمر فيها معاً نتذاكر الأدب ونوادر الظرفاء من الأقدمين والمحدثين، أخبرنى صاحبى أنه قد اعتزم السفر إلى أوربا، وأنه إذا كان يشق عليه أن يغادر مصر فلأنما سيترك فيها صديقاً أو حبيباً أو أخا، هو أنا — سيما بعد هذه العشرة الطويلة والأيام السعيدة التى قضيناها معاً.

لم أتمالك نفسى من الضحك، بل من الاغراق فى الضحك!

أتريد أن تسافر يا (أستاذ) إلى أوربا دفعة واحدة؟ طيب سافر إلى أم درمان! أو الى الشام أو إلى مكة أو المدينة يا شيخ عبد الرحيم، ودع أوربا هذه لغيرك من تلاميذ المدارس حيث لديهم على الأقل فكرة عن أوربا.

لم تبد على صاحبى علائم دهشة أو استغراب لما سمع منى، بل قال ولماذا لا أسافر الى أوربا ياصاح؟

نعم إذا كان ولا بد أن تضيع دراهمك التى لم يكن لك أى فضل فى جمعها، فلتذهب هنا فى مصر... أو على الأقل فلتذهب فى بلد شرقى... ثم أين هى الوطنية وأين هو حب الوطن الذى (دوشتنا) به سنين؟ إنى والله لا أرى أن تصرف نقودك فى أوربا حيث ترسل بها بعد أيام أو سنين قنابل ورصاص اليك وإلى أهلك:

فقال والله لقد كنت أحسبك تفهم أو على الأقل لا تسىء بى الظنون.. فانى أسافر إلى أوربا لكى أتعلم... وإذا ضاعت نقودى لهذا فى أوربا، فهى لا تعدل ما أحصل من علم وثقافة ومعرفة، أفيد بها نفسى وأهلى وبلادى.

قلت أتعنى ما تقول . . إنى أظنك تمزح . . قال ولم لا أكون جاداً ؟

قلت أنت أولا لم تحرز شهادات تؤهلك لطلب العـلم فى جامعات أوربا والانتساب الى معاهد التعليم هنالك ، إذ يجب أن تكون حاصلا على (بكالوريا) مصرية على الأقل . وعلى فرض أنك وجدت المعهد الذى يقبلك ، فانه لـكى تتعلم يجب أن تكون ملماً بلغة البلاد التى تتعلم فيها إلماماً كافياً ، حتى تستطيع أن تفهم بل تستوعب ما يلقى اليك من درس . . . كذلك أنت لاتعرف شيئاً من مبادئ العلوم الحديثة : فالجبر والهندسة والكيميا والطبيعة ، كل أولئك علوم يجب أن تكون ملماً بها .

فهل تظن أن ما حصلته فى الأزهر من علوم العربية والشريعة كاف وحده لما أنت عليه قادم من أمر له خطورته وله تقديره ؟ حقاً ان هذا الذى تزعم دعابة . ولـكنها دعابة مرة .

قال . ليست دعابة ، فأنا أريد أن أتعلم ، وأبواب العلم فى مصر أمامى موصدة . . . فعلى فرض أنى قبلت فى المدارس هنا مع سنى هذه ، فانى يجب لكى أحصل على شهادة عليا أن أقضى اثنى عشر سنة كاملة على الأقل ، أما إذا سافرت فان هذه المدة تنقص .

أجبته أنا ، إن هذا ليس تفكيراً بل إنه جنون إذ كيف تعبر النهر دون أن تتعلم السباحة ؟ أو كيف تبلغ قمة هذا المنزل دون أن ترقى سلمه ؟ قال ليس هـذا قياساً ، فأنا أستطيع عبور النهر دون أن أتعلم السباحة ، وأستطيع بلوغ قمة المنزل دون أن أرقى سلمه .

إذن قد اتفقنا لا بأس من أن تسافر وأن تعود ثانياً بعد بضع سنين ، فوالله يا أخى إن مصر فى حاجة أيضاً لمن يتعلم صناعة (العدو)

لم ينفع الجدل ولم يثمر الاقناع ، وسافر صاحبى بعد أن ودعته وودعت معه آمالى فيه ، ووصل ألمانيا ، وأقام بها يطلب العلم وهو لايعرف من لغة أهلها حرفاً واحداً .

تعلم اللغة ومبادئ العلوم وجاز الامتحان التحضيرى ، وانتسب إلى الجامعة ثم فى كلية الطب ثم انقضت سنو التعليم والتمرين ، وها قد عاد ثانياً لمصر ذلك (المجاور) طبيباً وهو الآن طبيب موظف فى (. . . .) ومحبوب من الجميع .

ولعل ما يؤخذ عليه ، أنه عاد متزوجا من أجنبية له منها أولاد ـ ولـكن لعل له عذراً وأنت تلوم ؟

محمد السيد